تكاد لا تحصى ، سيقطعك الناس اربا » .

قلت له :

ـــ « هل ستذهب اليه الليلة ؟ لماذا لا تذهب يا حمدان ؟ اطلب منه ان يعطيك قميصا ، ان يعطيك حذاء تدخل به الى العيد . ان يعطيك ابا انت الذي عشت عمرك بلا اب ، فاذا اعطاك سمعنا وصيتك ، واذا لم يعطك تنضم الينا » .

ـــ « أنتما كافران متساويان . هل يعني ذلك انك مصر على الذهاب لتخريب قبر الولي وقطع شجرته ؟ »

ـــ « لست أدري ، اسأله »

ـــ « ولكنه لا يسمع » .

ـــ « اكتب له السؤال .. »

ـــ « لا أعرف » .

ـــ « اذن اسكت » .

ـــ « لا . أريدك انت ان تجيب ، هل ستذهب ؟ »

أحسست بصدري يمتلىء فجأة بالهواء ، فتنهدت مرة ومرتين . كان ابو قيس قد كف عن التجوال الحائر فجلس على الكرسي الواطىء ومضى يزداد غوصا في صمته الفريد .

ـــ « هل ستفهم ؟ هل ستفهم لو قلت لك ؟ اذن اسمع : لا حاجة بعد لتخريب قبر الولي وقطع شجرته . ذلك عمل لا يريد شيئا ولا ينقص شيئا بالنسبة لي . الولي عبد العاطي مات ، انتهى ، خلص ، فاذا ذهبت ونكشت قبره واحرقت شجرته فذلك مجرد احتفال ، مجرد احتفال ، وليس هذا هو المهم ، هل فهمت ؟ »

وفجأة قال ابو قيس كمن يكمل حديثا بينه وبين نفسه :

ـــ « وماذا سنفعل الآن يا عبد العاطي ؟ »

واحسست بعينيه تفترسان وجهي ، مثلما اشعر احيانا بأذني مشرعتين أمام ادنى طنين ، مثل فخ جيد الاخفاء تحت الحشائش ، الا انني لم اقل شيئا ، كانت كل الابواب في راسي مغلقة ، ولم ينتظر ابو قيس طويلا ، فدمدم ساخرا :

ـــ « تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء » .

ومضى يضحك ، فأتذكر تلك الليلة الغريبة في البرية ، حين كان صوته الضاحك يشبه صوت افراغ قربة ماء ، يرتد صداه من خلف الاشجار وتحت الحجارة واعماق التراب . تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء . انه ينظر الآن ، بلا ريب ، نحو حمدان . أجل ، تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء ؟ ولكن لا بد منها . ها هم الرجال يرفعون أعمارهم عن الخطاف المتدلي من السماء ويمضون ، يتلمسون بأصابعهم راس الولي المتفجر ثمرة على شجرة ويعتصرون نداوته فيجدونه ثمرة فقـــع بلا وعود . يلتقـــي المهزومون المكسورون المحزونون فوق البلاطة التي تنام تحتها المعجزة ، فلا يرون تحتها الا جثة الموت الجبان . تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء ، تنهار جسور الوهم وتتعفن الوعود ويتعين عليك أن تحمل قدرك .

ـــ ٩ ـــ

مضيت طوال الليلة التالية أحلم حلما قصيرا واحدا ، أصحو من اعماقه مذعورا ، ولكنه ما يلبث ان يعود فيتكرر وكأنه اعادة عرض لشريط مصور : كنت أرى نفسي متجها الى